

من فرائد الشعر الغنائي في اللغات الجرمانية

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

نشرنا في جزء تموز الى تشرين الاول ١٩٦٠ من « المشرق » مقالة طويلة على فرائد الشعر الغنائي في اللغات اللاتينية ، والحال ان امثالها في الألسن الجرمانية مساوية لها بالابداع والكثرة والتنوع ، فزأينا ان نقدم الى قراء هذه المجلة نخبة منها .

اشهر اللغات الجرمانية هي الانكليزية التي فاقت ، في عصرنا على الاخص ، سائر السن العالم بانتشارها في الحُومين ، حتى بين ملايين من غير اصحابها ، في ميادين العلم والسياسة والتجارة . تليها برفعة المقام الالمانية ، ثم بدرجات متساوية واسفل جداً ، الهولندية ، الفنلندية التي ينطق بها قسم كبير من اهالي بلجيكا ، الاسوجية ، الدانيمركية الشديدة الشبه بالانجليزية المكتوبة ، لا المتكلم بها ، وبهذا المقدار تشابه الهولندية والفنلندية .

غاية الشعر التعبير الموسيقي عن الجمال ، ومن ثم لا ريب في ان الله تعالى الجليل بدون حد والمصدر الوحيد لكل جمال مخلوق ، هو اسمي المواضيع الشعرية . لقد ابدع فريدريك فون ماتيسون von Matthisson الالماني (١٧٦١ - ١٨٣١) في وصف فرط حقارة الانسان امام عظمة الله الملائة الكون « الى اقصى حدود دوران العوالم » ، والتي اجمل الخلائق شبه مرآة ضئيلة تعكس لنا شعاعاً كامداً من شمس حسنها الفتان :

« اياك يعظم ، يا كلي القدرة ، صوت تهال الكواكب ! اياك يعظم ، يا كلي اللطف ، غناء الساروفيم ! الكون بأسره حاثم ، في تألف اجزائه المتنوع الابددي ، الى اقصى حدود دوران العوالم وسطوع ربوات الشمس .
مبيدك - وهو الطيمة - منا اشد امتلاؤه بجلالك وحملك احلة زهور الربيع وبجر سنابل الصيف وتلال غب الحريف وروابي فضاء الشتاء .^(١) هي مراني قدرتك الكاملة .

(١) ينبر الشاعر الى التلويح المتراكمة . (٢) جمع مرآة .

من انا ، يارب ، امامك ؟ اني اتنفس منذ البارحة على الاكثر ، ولا يفصاني عن راحة الموتى سوى بون شبرا الطوبى لي مع ذلك ؛ من رقد بالموت رقاداً هيناً بين ذراعي الآب ، فحتم ان يثق بكلمة الايقاظ ، وهي الرحمة .

عظمة الله تُثير فينا آلم الشعور بعدنا المطلق ، بيد ان محبة اللامتناهية لنا قد حتمت على اشراكنا في حياته الالهية ، بتأنس ابنه الوحيد ، وجمل سعادته الفائقة كل ادراك وكل مُنية ، جزاء ابدياً في ملكوته الساوي لخدمتنا القصيرة له على الارض . فلا بدع بكون امل الطوبى الكاهلة يلازمنا من المهد الى اللحد ؛ ذلك ما تغنى به فريدريك شيلر Schiller الألماني (١٧٥٩ - ١٨٠٥) :

« كثيراً ما يتحادث الناس في شأن ايام مستقبله خير من الحاضرة ،
ويحلمون بها . زاهم يزكضون ، بل يتهاوتون على تلك الناية الذهبية السعيدة .
العالم يشيخ ويشب على الدوام ، والانسان لا يزال يؤمل تحسن حاله . الامل
يُدخله الحياة ؛ يزفر حول الصبي الفارع ؛ يحس الفتى بضياؤه الساحر ؛ لا
يُدفن مع الشيخ ؛ فاذا ختم هذا في القبر سيره المتعب ، ففي القبر ايضاً يزرع
الامل ! ليس الامل وهماً فارغاً ، بل يلد دماغ الحقي ، فان في القلب
يعان بصوت عالٍ اننا ولنا لاهو خير من هذه الحياة او ما يقوله الصوت الباطني
لا يُجذع النفس الآملة . »

اذا رسخ فينا رجاء امتلاك الله ، الخير الاعظم ، فمن المحال ان نيل عن
حب جلاله الى الهيام بالخلائق الجذابة ، فيها اثارنا فينا من عواصف الشهوات
المنحرفة . قد عبر عن هذه الحقيقة تعبيراً مطرباً عماثوئيل فون كيبيل von Geibel
الألماني (١٨١٥ - ١٨٨٤) .

« مهما اشتد تهديد الشتاء بمحركات عجرفة ، ونثر الجليد والثلج حوله ، فلا
بد ان يأتي الربيع . ومهما كثف تلبد الضباب امام نظر الشمس ، فسوف
ترقظ بدورها العالم يوماً من الايام للنسيم . »

فاعصفن ، يا عراف ، اعصفن بشدة ؛ لن يخامرني خوف من ذلك ،
فان الربيع يأتي - لا محالة - ماشياً في الليل على باطن قدمه الخفيف . بعدئذ

تفتيق الارض مخضرة ، وهي لا تدري كيف جرى لها ذلك ، ويملو ضحكها الى السماء المشعة ، وهي تكاد تموت من فرط السرور ! تضفر لذاتها اكاليل زهور وتدخلها شمرها ، وتردان بالورد والتابيل وتجعل الينابيع الصغيرة تسيل صافية ، كأنها دموع الابتهاج .

وه اذا وكيفا صمتت الارض ، يا قلبي ، فارض بذلك ، فان هناك يوم ربيع عظيماً مقدراً للعالم اجمع ! ولو اعتراك الخوف والاشمزاز مراراً عديدة ، كأن جهنم على الارض ، فاتكلن على الله اتكلاً شجاعاً ؛ لا بد ان يأتي الربيع عما قليل ! »

الله تعالى لا يزال ساهراً علينا بعناية ابوية محضة ، هيئات ان تقاس اليها عناية ارق الآباء بالولادهم . فهي حزنا الحريز في جميع ضيقاتنا ، وعلى الاخضر حين يهاجنا الموت الرهيب ، ويسلبنا كل خيراتنا الزائلة ، فيخرجنا من الارض عرأة كما دخلناها . قد البس هذه الحقائق المزرية ثوباً زاهياً من الحيات المتكورة إريك ياير Geijer الأسرجي (١٧٨٣ - ١٨٤٧) .

« مجملك ، يا رب ، قد فكرت فينا : ارضنا تضيف غناك ، والحنطة التي اترلناها في حضنها تسطع في نضج ذهبي . البركة تقدر ان تعطيا انت وحدك ؛ يمينك قد منحت بلادنا الحنطة والسيد .

ها هي السنبله تُصرع عند قدمنا ، وسيف الموت يصرعنا ! الهري يأخذ حصادنا ، والقبر يأخذ الحاحد ، وربنا القى فلاح بعد بضعة اعوام ، بدون علمه ، البذر على قطعة الارض التي تطيننا ! عندئذ تملكنا الارض التي ملكناها ، ويملك غيرنا مالنا ، وحول ناحية لحدنا توجد مساكن جديدة حيث تمشي اجيال جديدة . اكنك ، يا رب ، سوف تجمل في ذلك الوقت ، كما تفعل الآن ، شمك تُشرق ، والحصائد تزين الارض .

كل الارضيات ذاهبة وزائلة بسرعة شديدة ، فلا يسوغ لنا الشك من ذلك . في الحياة قد اخترنا لطفك ، وسوف نخبره في الموت ، فان من اتكلوا عليك سوف يجعون بصفة حصادك ، في شركك ، بدون ان يسهم الموت ! »

الليل الطويل الهادي . الذي يبيع نفوسنا واجسادنا بعد اشغال النهار

الصخب واتعابه المضنية وكروبه المديدة ، هو رمز واضح للراحة الابدية التي يثبث الله بها نفوس اولاده الابرار عند غروب شمس حياتهم في منقاهم الارضي .
من ذلك الفكر البسيط المألوف قد صاغ فريدريك روكرت Rückert الالماني (١٧٨٨-١٨٦٦) قصيدته الرائعة « نم ، يا فزادي ه » ، كما يصنع النحات الماهر تماثلاً ناطقاً من الحجر الاصم :

« نم ، يا فزادي ، سلام ، فان الليل قد اتى خواجه الزهور التعبه بالندى المرطب . نم ، يا فزادي ، سلام ، فان الحياة نائمة على الارض ، والقمر ساهر في ابهة هادئة ، وهو عين الله .

نم ، يا فزادي ، سلام مفصلاً عن الخوف والغم ؛ ان من يُعنى بالعالم يعتني ايضاً بقلب من القلوب . نم ، يا فزادي ، سلام مُبهدداً عن الحلم السيء ، مقروئاً بقدره الايمان ، والرجاء . ينظر اليك ضاحكاً . نم ، يا فزادي ، سلام ؛ واذا قُدر لك الموت هنا في الليل ؛ فتكون قد استيقظت هناك ! » .

بعد الله تعالى ، ينبوع الفياض لكل كمال وجمال ، لا موضوع اجدر بالقريض من الفضيلة التي تطبع على الانسان ، ابن التراب بل العدم ، شيئاً فاتناً من ملامح ابيه الساهوي . انما الفضيلة اعظم انتصار ، فانها غلبة النفس الروحية على الجسم المادي ، واعتناؤها المتواصل بما تحرمه اياه من الاموال والملذات المحرمة او المحالة الباطلة . الشاعر الانكليزي المفاخر وليم شكسبير Shakespeare (١٥٦٤ - ١٧١٦) قد خاطب نفسه ليحثها على كبح جماح جسده ، بيضعة ابيات مزدانة بالايجاز والاعجاز :

« ايها النفس الناعمة ، مركز تربياني " الحاططة ، انت التي تجدعك تلك القوى المتسررة الزائنة لك ، لماذا تضيئين في باطنك وتقاسين المحل ، وانت تنقشين بنفقة باهظة جدرانك الخارجية نقشاً بديعاً ؟ لماذا تنفقين على دارك الزائلة مبالغاً فاحشاً . مع كون مدة استنجازها قصيرة جداً ؟ تريدن ان تته إنفاقك الديدان ورتة إنراطك هذا ؟ اهذه عاقبة جسمك ؟

(١) التراب هو التراب او الارض . وقد عنى الشاعر بها الجسد .

عيشي اذا ، يا نفس ، بما يخدمه خادمك^(١) ، ودعيه يضني لتريدي مؤزنتك .
 إستقري ازمة الهية ببيع ساعات من الحب . في داخلك اغتذي ، وفي الخارج
 لا تكوفي غنية منذ الآن . هكذا تمتدنين بالموت^(٢) المتغذي بالبشر ، واذا يكون
 الموت قد مات ، لن يبقى ابداً من يوت !^(٣)

جوهر الفضيلة حب الله مستولياً على قلب الانسان ومحولاً الى ذاته السامية
 كل حب آخر للخلائق . فمن كذب عن حب مولاه عاش مضطرباً ، تاعساً ،
 خائباً ، يتضور من الجوع ويكاد يفنى من العطش ، ولو ظل يبادل اجل
 المخلوقات بكنوزس الموى المسكرة . قد اختبر اكلينضض برنتانو Brentano
 الالماني (١٧٧٨ - ١٨٤٢) في نفسه اعراماً عديدة آلام تلك الحية المبرحة ،
 ولم ينبج منها الا بعددته الى حب ربه . هاتك وصفه المؤثر لاهتدانه :

« كيف ؟ ايمن ذلك ؟ ايمن ان يجيظ الحب ، الحب الذي لا يعرف
 سوى سعادة الشخص الآخر المحبوب ؟ ايمن ان يمتدب ذاته وحبيبه ، ان يلد
 الالم والنظر الشدي بالدموع ؟

قد رأيت عدداً لا يحصى من الناس المضطرمين بالحب ، وهم غير سعداء ،
 مع انهم محبوبون ويحبون ؛ يتحدون اليوم وينفصلون غداً مثل القعب الذي تُميله
 كل ربيع .

لقد احببت انا ايضاً ، واستولى علي شوق حار ، واشتعل قلبي بنار قاسية
 وأحيت ، وحينئذ تسلط علي - آه - خوف دائم وتوالت الاوجاع . كنت
 اشرب يوماً ماء الكوثر من الشفاء الارجوانية ، وفي غده الدم والموت من كل
 نكبة . في بحر الحب آلاف صخور طافية ، وقد غرق فيه زورقي الصغير مع
 ال زورق آخر ، وبينما كان يفرق ، سمعت نوحاً خافتاً ، ورأيت دموعاً
 - واهاً ها - جميلة كاللآلي . وقال لي قائل : « ارفع عينك الى ذلك
 الطاهر^(٤) ، وتعلم منه فهم كنه الحب . » فاذا الامور التي كانت ملتبسة علي ،

(١) الجند .

(٢) يعني بفكرة الموت والاستعداد له .

(٣) يعني الشاعر انه نال المحب كل خلائفه .

في الاحلام دون سواها ، قد انبسطت امامي كجنان الفردوس ، وما كان
يشق السحب الدكنا ، بين حين وآخر فقط ، شبه ثورة صاعقة ، تحت الانقاض
والحرائب ، قد صار فجأة نيراً في اعماق نفسي ؛ ولت ذبلك النور الجميل
يتزل ايضاً عليك ا واذا اصرات رائدة الى ذلك الوقت في باطني ، قد تمحرت
الى نهات ا

يوجد حب واحد فقط ، لا يمكن ان يحبط بحب واحد فقط هر جوهر
كل حب والرابطة الوحيدة القوية لجميع النفوس ؛ هر الحب الهادي الامين
للرب ! «

منذ سن التمييز تنقضي حياتنا الشقية في حرب ضروس بين هيامنا بافه تعالى
وشغفنا باصنام الخلائق . ولا يخرج ظانراً سالماً من ذلك الجهاد الهائل سوى
اقلية زهيدة من الايطال ؛ اما الاكثرية فهي ملايين من الجرحى بسل القتلى
المجتذلين في المعركة . الشاعر الاميركي النابغة هنري لشكفلو Longfellow
(١٨٠٧ - ١٨٨٢) يحثنا في قصيدته الخالدة « مزمر الحياة » على البطولة في
هذا القتال الدائم طول حياتنا :

« لا تقل لي بايات مكتوبة : » ليست الحياة سوى حلم فارغ ، لان النفس
النافية ميتة ، والاشياء ليست ما تظهر لنا . « الحياة حقيقية ، الحياة جدية ،
والقبر ليس غايتها ؛ » انت تراب وسوف تعود الى التراب « لم تقل عن النفس .
ليست اللذة ولا الحزن الغاية او الطريق المقدر لنا ، بل العمل حتى نجدنا كل غد
متقدمين بالنسبة الى اليوم الحاضر .

الفن طويل والوقت سريع الزوال ، وقاربنا ، ولو كانت قوية وباسلة ،
فهي مع ذلك كطبول مغطاة بما يجنض صوتها ، تدق بنفمة سير موكب جنازة
الى القبر .

في معركة العالم الفسيحة ، وفي ممسك الحياة ، لا تكن كلالشية العجاء .
المروقة ، بل كن بطلاً في القتال ! لا تثق بالمستقبل ، ونو حلاك ؛ ذر الماضي
الميت يدفن مواته . اما انت فاعمل ؛ اعلم في الحاضر الحمي ، والشجاعة في
باطنك ، والله تعالى فوق رأسك . سير الرجال العظام تذكرنا اننا قادرون على

جمال حياتنا سامية ، فنخلّف عند رحيلنا آثار اقدمنا علي رمل الزمان . آثار
ربما رآها شخص آخر سائر على محيط الحياة الوقور ، اخ مخذول وغريبتى ،
فانتمشت همته . فلنكن منتصبين ودائبين على العمل ، ذري قلوب مستعدة
لكل الاقدار ، ولتعلم الشغل والانتظار ، ونحن مواظبون على انجاز العمل
ومراصله . »

ناظم هذه القصيدة المطربة يوضح لنا في وصفه الدقيق حياة حداد الضيعة
ان جهاد الفضيلة المفروض علينا ليس سلسلة مآثر غير مألوفة ، تلفت نظر الناس
وتثير اعجاب السذج . انا جوهره القيام الكامل بواجباتنا اليومية المصحوبة
حتاً بتوكب طويل من الاتعاب والاحزان ، وذاك بهمة قساء ، لا يغلبها قط
الضجر ولا الجزع ولا اليأس :

« تحت شجرة بلوط ممتدة الفصون ، يوجد معمل حداد الضيعة . الحداد رجل
قوي ، ذو يدين ضخمتين عضلتين ، وعضلات ذراعيه الشديتين تضاهي بالقوة
كبولاً من حديد . شعره جمد اسود طويل ، وحيايه كالديبغ ، وجبينه مندى
بمرق التراهة . يكسب كل ما استطاع كسبه ، وينظر الى وجه كل الناس ،
لانه غير مديون لاحد . طول الاسبوع ، من الصباح الى المساء ، يمكنك
سماع نفضة كيره . يمكنك ان تسمعه ، وهو ييز مطرقة الكبيرة الثقيلة ،
ويضرب بها ضربات موزونة^(١) بطيئة ، مثل واهف يدق جرس الضيعة حين
تقبل شمس المساء . والاولاد العازدون من المدرسة الى بيوتهم ينظرون من باب
المعمل المفتح الى داخله . يجنون ان يروا المعمل الملتببة ناره ، ويسمعوا دوي
الكبّر ، ويسكوا الشرار المحرق المتطاير كالتين الدقيق من البيدر .

يذهب يوم الاحد الى الكنيسة ويجلس بين صيانه ، فيسمع الكاهن
مصلياً وواعظاً ، ويسمع صوت بته مرتلة في جوقة مرتلي القرية ، وذلك يرس
قلبه . هذا الصوت يرن له كصوت اميا المترنمة في السماء ، فلا مندوحة له
عن التفكير مرة اخرى فيها وفي كيفية انطاحها في القبر ، وبيده الصلبة
الحشة يمسح دمة من عينه .

(١) هذا التمثيل يدل على ان بين كل ضربة والتالية وقتاً ثابتاً .

يجتاز الحياة سائراً الى الامام في الكد والسرور والحزن . كل صباح يراه شارعاً في شغل ، وكل مساء يراه خائفاً اياه ؛ شيء يحاول رشي . متمم قد قد استحقا راحة ليلة .

الشكر لك ، الشكر لك ، يا صديقي الفاضل ، على التعليم الذي علمتنيه ! هكذا في معمل حداثة الحياة الملتبته ناره ، يجب ان تصاغ خيراتنا . هكذا يجب ان يكثف على سندانه الزمان كل عمل وفكر مضطربين !

في « اليوم المطير » يبين لنا هتري لكفلو ، بجذلات شعرية جديدة ، ان من اجل مظاهر شجاعتنا في جهاد الحياة عدم خمود همتنا وتباطؤ سيرتنا الى الامام نحو غايتنا القصوى ، حين نجتيم فوقنا الفيوم الدكنا . المتابدة ، المادية او المعنوية ، ولو لم ينفذ منها الى قلبنا الكئيب الملول شعاع واحد من شمس الفرح البيجة المنمشة :

« اليوم بارد مظلم محزن ؛ المطر هاطل والرياح لا يمتريها قط الكلال . الكرملة لا تزال متعلقة بالخائض المتداعي ، بيد ان الازراق الميتة تسقط عند كل هبة ريح ، واليوم مظلم محزن .

حياتي باردة مظلمة محزنة ؛ المطر هاطل والرياح لا يمتريها قط الكلال . افكاري لا تزال متعلقة بالماضي المتداعي ، بيد ان آمال الشباب تسقط كثيفة في هبة الريح ، والايام مظلمة محزنة !

إهدأ ، ايها القلب الكئيب ، وكف عن بث الشكوى ، فان الشمس لا تزال ساطعة وراه النور . نصيبك هو النصيب العام تكال البشر ، فلا بد ان يسقط بعض المطر في كل حياة ، ولا بد ان تكون بعض الايام مظلمة محزنة !»

حين تكسفننا دياجبي المسموم والكروب ، فتوشك ان تطفى . في اعماق نفوسنا لميب الامل الوهاج ، فلنتذكر ان في هذا العالم نحو ثلاثة ملايين من الميمان ؛ بقضون حياتهم في الظلام الدامس ، محرومين ملذات النظر التي هي اكثر جدّاً من مجموع ملاذ سائر الحواس . واهم الحق ما اضرب عليهم الصبر . على تلك المصيبة الفادحة وقبولها بخضوع تام من يد الله ! بيد ان المولودين منهم في المعنى - وهم الاكثية - لا يتجرعون سوى قطرة من غمار آلام غيرهم ،

لجلهم فنته الانوار والالوان. قد وصف كورلي سير Colly Cibber الانكليزي
(١٦٧١ - ١٧٥٧) هنا هم اتذوع وصفاً مزئراً في « الفتى الاعمى » :

« آه ! قولوا لي ما هو الشيء المسمى نوراً ، الذي حُتم عليّ الا اتمتع به
ابداً ! ما هي فوائد النظر ؟ آه ! اخبروا فتاكم الاعمى التاعس !

تحدثون بأشياء عجيبة تشاهدونها ؟ تقولون ان الشمس تلوح ساطعة . اما
انا فاشعر بكرتها حارة ، ولكن كيف تستطيع ان توجد النهار او الليل ؟ انا
ذاتي اصنع نهارى او ايلي كلكم بنت او لبت ؟ ولو قدرت ان ابقى على الدوام
يقظاً ، لدام النهار لي .

كثيراً ما اسمكم ترثون بزفرات ثقيلة لمصيتي المتمة ، ومع ذلك لا
برم اني قادر ان احتمل بصر خسارة لن استطيع قط معرفتها . فلا تدعوا ما
لا يمكنني نيله يزيل حسن حالة نفسي ! بينما اغني هكذا ، انا مملك مع كورني
نتى اعمى تاءاً ! »

من مقتضيات القضيلة: المحضة ان يضحى صاحبها بذاته تضحية كاملة دائمة
لخير قريبه ، فيسقيه نخر الرفاهة والسعادة ويشرب كأس العلقم حتى الثالثة .
قد بلغت ربوات الامهات ، في كل اقطار العالم ، ذروة ذلك الايثار العجيب ؛
ومن اعظمه البشراء المجيدون وصفه كل الاجادة زكريا توبيليرس Topelius
الفنلندي (١٨١٨ - ١٨٩٨) ، في تصيدته الشهيرة « امي » المنظومة باللغة
الاسرجية :

« اين يوجد حب يثبت حتى الموت بدون تغير ، في كل تقلبات النصيب ،
حب يسهر علينا مثل ملاك الله ، ولا يطلب منا شيئاً ، بل يحرم ذاته كل
شيء . ؟ في هذه الارض لا يوجد غير حب واحد من هذا النوع ، وهو حب
الام فقط .

كل قيد يقيد القلب هو الثاني : القبله الحارة على خدي الفتاة المخطوبة ،
الذراع اللطيفة التي تمدها اخت ، الذراع النحيقة التي يدها الينا الطفل . ان خير
صديق يتوق الى اخذ اجر صداقته ، والام وحدها طابت نفساً عن كل اجر .
متى تتذكر ما قاسته في لاعوام الطويلة من الالم الثقيل والدمع السخين ،

وفقدان ربيع صباحها الذي لن يعود ، وتعب النهار وسهر الليل ، في سبيل ذلك
الولد الذي يزيد حبه له بزيادة ما تبذله من العطايا لاجل سعادته ؟
ومن يستطيع منحنا مثل ما تمنحنا هي ؟ الفكرة الاولى التي يفكرها
الولد ، الصلاة الاولى التي تتسم بها شفتاه ، اللهم الطاهر لا حجب الاول ،
الارشاد الاول الى الحق ، الفضيلة ، الحقيقة ، الحرية والوطنية ؟
ونحن ماذا نعطيها مقابلة لعطاياها ؟ اوزاء احزاناً كثيرة تغفرها لنا غفراناً
رقيقاً ، حبنا الضيف المقسوم على عدة اشخاص ، عنايتنا المشتتة والناوية في
العالم ؛ فلا نجد الغراء حتى في رؤيتنا ، بل نتركها وحدها في خريف الحياة !
مع ذلك تتبع بأفكارها الولد الضال الذي يجول بطألاً في العالم ، وصلاتها
مثل مصباح ملاك ، تسبقنا بضياها الساطع ، حين يرتحى سيرنا ، فتغير طريقنا
بالايان المسيحي ، فتهد السبل وتشد بنا العائلات .
بركة الله على مثل تلك الامم ! آه ! انه حلالة في فيضان الدموع ، انه
لفرح في كل الاوقات ان يستطيع الانسان الالتصاق الواسع بثل ذلك الصدر
في معاركات الحياة الانانية ، وقبول لثم حبه الحار !
جازها ، اللهم ، الجزاء الذي عجزنا عن منحها اياه ! البذر الذي بذرته في
اوانه هو بذورك ؛ انما الحب الذي ينمكس ضياؤه في عين الام هو حبك
السامي الابدي ؛ وان ذلك ، متى زال سطوع تلك العين ، نشمر كأن احدي
الشوس قد غابت ! »

هنري هاينه Heine الالماني (١٧٩٧-١٨٥٦) يعترف لنا بأنه قد هجر
والدته ، بعدما استخف نجبتها وعده تافهاً ، ثم هام على وجهه مستعظياً كالمندول
فتاتاً من حب اشد والذمن هيام والدته . وبعد جولانه المضني الباطل ، عاد
اليها شاحب الوجه ، فارغ القلب ، فوجد في ضياء عينيها الدامعتين لهيب الحب
الرقيق التزيه الذي طالما طلبه من غيرها ، فلم يعثر عليه :

« في وهمي الجنوني هجرتك يوماً ، يا امي ؛ اردت الذهاب الى اقاصي
العالم ؛ اردت ان اعرف هل اجد الحب ، اكفي اعتقه بل . حيي . طلبت
الحب في كل الطرق ؛ امام كل باب مددت يدي مستعظياً حسنة حب زهيدة ،

لكن الناس لم يعطوني سوى البغض البارد ، ضاحكين عليّ ! ظالمت هاتماً علي وجهي انشد الحب علي الدوام ، لكنني لم اجد الحب قط ، فصدت الي الدار مريضاً ، حزيناً ا غير انك اتيت ساعتك لمقابلتي ! آه ا ذلك الشيء الذي كان يطفر علي عينيك ، هو الحب المذب الذي طالما سميت ورائه ا »

ناظم هذه القصيدة الجميلة يُقر لنا ايضاً بان سمو فضيلة امه تقهر سطورة كبريائه ، فتُسيب الهيبة والتواضع منابها ، وتُثير فيه اشد الحزن لكونه قد جرح نواذرها المشرف به بطعنات احداثاته العديدة :

« انا متاد نصب رأسي عالياً جداً ، وفي طبيعي شيء من التصلب والمنود . ولو حدق الملك نفسه الي وجهي ، لما خفضت العينين . مع ذلك ، يا امي العزيزة ، اريد ان اجاهر بانني ، مهما انتفخ قلبي المتكبر انتفاخاً شديداً ، فان هيبة ملائي بالتواضع تستولي علي مراراً عديدة في جوارك السعيد المذب المحبوب .

هي روحك التي تلبني غلبة خفية ، روحك السامية التي تنفذ بجسارة كل شيء ، وتطير الي ضياء السموات قاذفة البروق . وبمذبني تذكري اني قد ارتكبت آثاماً كثيرة بشيرة اخزنت نواذك ، الفؤاد العجيب الذي هام بي كل الهيام ا »

من اعظم الفضائل حب الوطن ، ان لم يُحصَر في نطاق ضيق من العواطف التريزية اللذيذة التي تحولته الي اثره حقيرة ، بل سما بصاحبه الي بذل النفس والتفيس في سبيل موطنه . من احب وطنه ذلك الحب العامل النشط ، حتى لهُ ان يتغنى بجماله الساحر ، كما فعل رasmus Winther الدانيسركي (١٧٩٦ - ١٨٧٦) ، في قصيدته « وطني » :

« الا تعرفه كل المعرفة ذلك التطر الصغير الجميل ، الذي ينثني حول ساحله ماء البحر المالح ، وتظله غابات الزان المادئة ، وتنبت من ارضه سنبلة القمح شبيهة بالنهب ؟ هل تعرفه ؟ آه ا هناك ، هناك فقط يمكن ان يكون هم الحياة وفرحها عزيزين عندي !

الا تعرفه ذلك البيت الوطني . الهادئ ؟ في غرفته تجد السلام وفي حجراته

السكينة ؟ امام نافذته تهبز اوراق الريفون المريضة ، ويؤثرق الدوري ، وتبسم الشمس فرحة . هل تعرفه ؟ هناك ، هناك فقط اقدر ان احلم احلامي واجدها مستحبة جداً !

الا تعرف ارض جدودنا القديمة ، الغنية بكل القنى بتذكاراتها الجليسة واساطيرها وانشيدها ، التي يُتبر صوتها الرزين في صدري الم الوحشة ولذة الشوق الحزين ؟ هل تعرفه ؟ هناك ، هناك فقط اشعر بأني على الارض اقرب ما اكون من السماء . ا »

للفضيلة درجات لا حد لارتقائها نحو قداسة الله اللامتناهية . من اعلى معارجها في تاريخ العالم المسيحي ان الامبراطور شرل الخامس ، اعظم عواهل اوربة في عصره ، المالك على بلاد عديدة كبيرة في القارة المذكورة وفي العالم الاميركي الجديد مدة تسعة وثلاثين عاماً ، قد زهد زهداً كاملاً في المال والملاذات والمجد ، فتخلى عن اسمى العروش واسنى التيجان ، ودخل سنة ١٥٥٦ دير يوسته (Yuste) ، الواقع في غرب اسبانية ، ليشاطر رهبانه الفقر والعفة والطاعة ، فضلاً عن صلواتهم الطويلة وتشفاتهم الالينة ، حباً للسيد المسيح وانتعداداً للافاقه في يوم الدينونة الرهيب . قد وصف شرل فون پلاتن (Platen von) (١٧٩٦-١٨٣٥) الالماني دخول سجنه العظيم القديس دير يوسته وصفاً جديراً بتخليد تلك المأثرة الرائمة :

« الوقت ليل ، والزوابع ترجمر بلا انقطاع ؛ ايها الرهبان الاسبانيون ، افتحوا لي الباب . دعوني استريح هنا الى ان توقظني دقة الجرس التي تفتلكم في برد الكنيسة لاجل الصلاة . اعدوا لي ما يقدر عليه منزلكم : اسكياً وقبراً . اعطوني التلية الصغيرة وأطعموني على اصول حياتكم ؛ قد كان لي اكثر من نصف هذا العالم ! الرأس المتعاد الآن للعص ! كان متوجاً ببيجان عديدة ! الكفان المخفوضتان تحت الاسكيم قد زانوها ثوب امبراطوري من فروة القاقم ! اما الآن فاني امام الموت لشبيه بالموت ، ومُنهار كالامبراطورية القديمة ! »

معظم الناس يسخرون بالابرار ويمدونهم بلباً بل مجانين بقدر سمو فضيلتهم

(١) النفس الذي يقص الكليل الكامن او الراهب ، وهو دائرة جرداء في اعنى رأسه .

وكال تجردهم عن حطام الارض الفانية . ولا غرو من ذلك ، فان ارتك
 الآخرين المتخذة من ملهون بالذرات ، منهكون في السعي وراها ، كأنهم
 قد خلقوا للتع بها . اما نقولا لينار Lenau الالماني (١٨٠٢ - ١٨٥٠) فقد
 عظم زهد النساك ، عشاق الله وجلادي نفوسهم واجسادهم الطاهرة ، تكفيراً
 عن جرائم اخوتهم الخطاة :

« آه ! لا تسخروا بالنساك الخرائي ، لكيونهم يمدون جسمهم بآلام حادة ،
 ويحرمون ذاتهم افراح الارض العنبة ، الزائلة ، المتلاشية بغاية السرعة ! بجانب
 الذين يحدون بجرس علف المذات ، قد خفقت على الدوام ، منذ ايام
 الفردوس المفقود ، قلوب عديدة ، ماتت عنه واحتقرت مرتع هذه الارض !
 الشعور الحجيل بأن الانسان كائن ساقط ، يجيد باولئك الاشخاص عن سوق
 الافراح الصاحب ، ويأمرهم بأن يسلكوا في الخلة طربق الاشراك . وتريد
 رزانتهم حين يرون بجانب سعادة ارضية ، لا يستحقونها ، والحبا . ينهم عن
 مد يدهم اليها بوقاحة . »

لولا الموت ، الذي هو ختام تجارب الصديقين وباب السعادة السارية ، جزاء
 انتصارهم على جميع الشهوات السافلة ، لتحم عليهم ان يجاروها الى الابد بلا
 هدنة ولا راحة ، مما يناقض عدل الله وحكمته ، ولطفه مناقضة مطلقة . وكما
 ان المنجر في سفينة تهزها العواصف وتصدمها الامواج ، يجذب لتسكين اضطرابه
 الى منارة الميناء البعيد ، هكذا تثير فينا كروب العيش المتواصلة ترقاً حاراً الى
 ميتة صالحة ، تنقلنا من غمارها الهائلة الى امن المرفأ السماوي ، حيث يشركنا
 الاله المعطاء . في سعادته الفائقة لجميع منانا . قد طمعت الاشجان قلب نقولا
 لينار Lenau ، السابق ذكره ، طمعت نجلاء ادمته وامضته ، ولم يستطع كشف
 جرحه المتزايد العمق لآمه المتوفاة ، فتوسل اليها ان تنقله من دار الشقاء الى
 جوارها المسعد :

« انا حامل في قلبي عب . جرح عميق ، وقاصد ان احمله صامتاً صحت الخرس
 حتى نهاية حياتي . اشعر بقضه العادم الكلال والمتزايد العمق على الدوام ،
 وبكيفية انقاص الحياة من ساعة الى ساعة !

لا اعرف - سوى امرأة واحدة كنت استطيع ان استودعها معرفة حلي واقول لها كل شي. ، لو قدرت ان اشق وانشكى على عتقها ، بيد ان تلك المرأة الواحدة منسطة ، وهي مدفونة في الارض .

يا ام ، تعالي وليؤثر فيك تضرعي ! اذا كان حبك لا يزال ساهراً في الموت ، واذا ساع لك ان تعني ايضاً بولئك كما فعلت في الماضي ، فدعيني افارق هذه الحياة عن قريب ! انما تائق الى ليلة هادئة ، فساعدني الالم على تجريد ولدك التعب عن ثوب الحياة ! »

ليس موت البار - سوى رحيل من المنفى الى الوطن ، ولذلك تذرب بسبل تتلاشى في عذوبته الفاتكة آلام النزاع ومرارات الوداع . قد وصف توها هرد Hand الانكليزي (١٧٩٩ - ١٨٤٥) بدقة كاملة تفاصيل موت ضابط في سفينة جاب بها البحار مراراً ، وهو قائم بوظيفته خير قيام ، الى ان وافته المنية في حجرته الضيقة :

« مشيد هائل ، جدير بالتأمل : في سفينة على بُعد فراعسج من البر ، في الحجرة التي تديرها بنور احمر آخر اشعة النهار ، الشاب منسطح هادئاً واخرس . لن تقض ابداً دومة فرح او حزن ختم هاتين السنين الثقيلتين ، ولن تفتحا لاي غد كان . اليدان المضمرتان على صدر خال من نبضات الجوى المختلة ، تفصحا عن راحة بلا انقطاع ، لا تستطيع لفة ارضية التمييز عنها ! ويخيل للناظر ان بسمة عذبة تسر وتحمو على الشفة ، بينما الظلال في ذهاب واياب بسبب حركة السفينة . في احسام قد وافت الراحة والسلام ؛ ما اشدها ومبا اعظمها ! وكذا الامواج الغريزة لليت تدندن له : « قد وصلت الى دارك في النهاية ! »

يُخَيَّل لجميع من اليوا الخلائق ووقفوا حياتهم على حبها وعبادتها ان الموت ليل اليل ، وليسوا مخطئين في ذلك التصور ، فان الموت يدهورهم في حجة عين في ظلام جنم الدامس وعذابها الهائل ، الى ابد الابدن . امأ وفاة الابرار فهي غروب شمس مخلوقة كثيرة النقااص ، وتجي شمس جمال الخالق التي لا يعترها افول . شه در يوسف بلاتكو ويت Blanco White (١٧٧٤ - ١٨٤١) ،

من فوايح الشعر الانكليزي ، فقد حدثه مخيلته القديرة الى تشبيه فرط خوف الانسان من الموت بارتياح بيه آدم من ظلام اول ليل في حياته ، مع ان ذلك الظلام ما لبث ان كشف له آلاف بدائع عالم النجوم :

« ايها الليل الغامض ، حين عرفك والدنا الاول ، من انذار الله ، وسمع اسمك ، لم يرتش لهفة على بناية السماء المستعجبة ، على ذلك السرادق البديع ، المصنوع من النور والزرقة ؟ وراء ستار من الندى الشفاف ، غاطسة في اشعة الشعلة الكبرى الفاربية ، وافت الزهرة مع جيش الكواكب ؛ ها هو الكون قد اتسع في نظر الانسان !

من كان يستطيع الظن ، ايها الشمس ؛ ان مثل هذا الظلام كان محتفياً في اشمتك ؟ بل من كان يقدر ، وانت تربيه الزهور والاوراق والحشرات ، ان يكشف إعمالك ايانا عن تلك النجوم التي لا عدد لها ؟ فلماذا ، والحالة هذه ، نبتعد عن الموت بجهد مضطرب ؟ ان كان النور يقدر ان ينجدنا ، فلماذا لا تقدر الحياة ؟ »

على كل حال ليس الموت سوى ثانية جازمة تضع حداً لا يمكن تجاوزه لحريتنا وتجاربها . امأ حياتنا ، وان بلغت اقصى مدى الهرم ، فهي اقل من ثانية بالنسبة الى الابدية التي نسير حثاً اليها . فيجب علينا تخفيف لوعتنا على وفاة اغرائنا الموقى وتراييم عنا في دياجى القبور ، بامل تأله حياة نفوسهم الكامل في الابدية السعيدة . قد عبر هنري لشكفلو الاميركي عن تلك الفكرة السامية في ابيات قليلة ، كتبها ابداع من مامات ساطعة منتظمة على سلك من الذهب الابريز :

« نخذهم ، ايها الموت ، واذهب بكل ما تستطيع ان تسيه ملكك ؛ صورتك المطبوعة على هذا الطين البشري تخولك ذلك الحق ، ولكن ذلك الحق رحده اخذهم ، ايها القبر ، وأرقد جثثهم مشية على رفوفك الضيقة ، كأنها ثياب وضعتها النفس على حدة ، ولا قيمة لها الا في عيننا . خذهم ، ايها الابدية الجليلة ؛ حياتنا الدنيا ليست سوى عصفه ربيع ، تحني اغصان شجرتك ، فتجر ازهارك في التراب ! »

ان الله تعالى ، مبدأنا الاول وغايتنا التصوي ، قاصد ان يتجلى لنا بعد مرتنا ، الى دهر الداهرين ، بكلمه اللامتناهي الذي عجزنا كل المعجز عن استقصاء كنه الواحد ، فكثرتنا اسماؤه ودعواته قداسة ، علماً ، غنى ، قدرة ، عظمة ، جلالاً ، سعادة ، عدلاً ، رحمة ، حباً ، عناية النعم . بيد ان الطبيعة التي اخرجها من الدم بمجرد ارادته الخالقة ، تحتوي في كل مظهر من مظاهرها الثنائية ، بل في كل جزء من اجزائها التي لا يستطيع اسمي القول كمال فهمها واحصائها ، آية اي علامة مُميّنة لاهنا وسيدنا المالىء الكون بأسره ، مبع اختفائه فيه ؛ والله در الشاعر الفيلسوف الذي عبر عن تلك الحقيقة الجوهرية بيته الخالد :

وفي كل شيء آية تدل على انه الواحد !

فلا بدع بكون اعظم الشعراء الثنائيين في اشهر لغات العالم - وهي مثات - قد حاولوا قراءة اسم الله الجليل في سفر الطبيعة ، بوصفهم شيئاً يبرأ من محاسنها الآخذة بتجامع القلوب .

إسمعوا وليم وردزورث Wordsworth الانكليزي (١٧٧٠ - ١٨٥٠) يحدثنا عن شغفه بطير الوقواق الذي قد افعم بالفرح ، بل سحر اياماً لا تحصى من حياته :

« يا حديث المجي ، الفرح ، لقد سمعتك والآن اسمك وابتهج . ايها الوقواق ، هل اسميك طيراً او صوتاً متسكماً ؟ بينما انا منطح على العشب ، اسمع صيحتك المزدوجة ، وكأنها تجتاز من قل الى آخر ، وهي بعيدة جداً وقريبة في الآن ذاته . مع انك تترثر للرايدي دون سواه ، في شأن ضياء الشس والزهور ، تأتيني بوصف لساعات الرؤى^(١) .

ارحب بك ثلاث مرات ، يا محبوب الربيع ! حتى الآن لست في نظري طيراً ، بل شيئاً لا يُرى ، صوتاً ، سراً ! انت ذاتك الذي كنت اصغي اليه ايام كنت تليدًا ؛ ذلك الصوت الذي جعلني التفت بالف وجهة الى الجنب والشجر والسماء . كثيراً ما كنت اهم على وجهي في طلبك ، وانما ابتاز

(١) ربما عني الشاعر بذلك التعبير ساعات الوحي الشعري .

الغابات واسير على العشب القصير، وانت مع ذلك مريض رجا. وحب، شائق
على الدوام وغير منظور اصلاً!

ويمكنني ان اصفي اليك ايضاً، ان انسطح على السهل واصفي الى ان
أخرج ثانية الى حيز الوجود ذلك الهند الذهبي. ايها الطير المبارك، ان الارض
التي نسمها تظهر لنا مرة اخرى مكاناً غير مادي، سحرياً، هو مشوي لائق بك!

البر رودنباخ Rodenbach البلجيكي الفلمنكي (١٨٥٦-١٨٨٠) يصف
لنا جمال انبلاج الفجر وطوارع الشهب في ضيعة من بلاده:

« لاح النهار على الضيعة والريف، وناحية الشرق كلها ملتية ومحروقة.
المروج الممتدة بالندی مبخرة، والهيادب^(١) متدلية بين الاشجار، والهيادب
هاربة على طول النهر، وكل ورقة تسكب قطرة ندى.

القبعة تسرع في الطيران الى العلاء، وهي تغرد في اجتيازها الجو الازرق؛
الدوري يسرق على السقوف، والمصافير ترتق تحت الاعشاب المضرة، حين
قلعها، ويعني كل ما يسمع ويرى.

فوق الحقل الضاحك الاخضر يططن الجريس^(٢) الرنان البطي. الدقة،
والعمال المستيقظون عند شروق الشمس، ينشثون في كل جهة، في ساحات
البيوت وفي الحقول، ويشرع في الشغل بالصلاح والننا. وجميع ما يتبع تحت
النظر يصير حياة.»

وليم كلوس Kloos الهولندي (١٨٥٩-١٩٣٨) يصور لنا بكل الايجاز
راحة الماء الشاملة بعد ضجة النهار المزعجة، ثم يبوح لنا بان قلبه يأبى ان
يشاطر الطبيعة سكونها الكامل:

« الزهور البيضاء، وهي لا تكاد ترى، تهتر في الشفق بتأثير زفرة^(٣) خفيفة.
انظروا كيف ينطاق، الآن ايضاً، امام نافذتي، بدوي فجائي، طير مفرط
التأخر^(٤). وفي البعد هناك السماء اللطيفة اللون كصدف اللؤلؤ، التي تحمي

(١) الهيادب سحابة متدلية بقرب سطح الارض.

(٢) جريس كنبسة الضيعة.

(٣) يعني نسة من الريح شبيهة بزفرة.

(٤) التأخر في العودة الى عه.

فيها كل صبغة^(١) انحاء رقيقاً . . .

الراحة ؛ يا لها لذة عجيبة الغرابة ، فان كل الاشياء ليست في النهار قريبة من القلب الى هذا الحد . لقد ماتت كل ضجة كانت تواصل التكلم^(٢) عن بُمد ؛ الريح والسُحب وكل شيء لا يزال يزداد تمهلاً ؛ كل شيء يبست كامل السكون . ولا ادري كيف يمكن هذا الفزاد المتناهي الضعف والسالف القلوب ان تزيد على الدوام شدة خفقانه ، ان تزيد على الدوام ، فأبني ان يستريح . »

قوس قزح هي بانتصابها من الارض الى السماء وارتفاعها الشامخ وكال استدارتها وزها . الرانها السبعة ، من ابداع بحاسن الطبيعة ؛ هي شبه جسر غير مادي بنته اشعة الشمس بعيد المطر المضجر ، رمزاً لكون احزاننا الارضية الزائلة تزول بنا ، اذا قبلناها بالشكر من يد الله ، الى دار الضياء الدائم والسعادة الابدية . لقد اجاد كل الاجادة في وصف تلك القوس العجيبة توما كميل Campbell الانكليزي (١٧٧٧ - ١٨٤٤) :

« يا قوس الانتصار المائلة السماء حين تأهب العواصف للابتعاد ، اني لا اسأل الفلسفة المتشائمة ان تعلمني ماهيتك . إظهري لي مع ذلك ، كما ظهرت لنظر طفولتي ، محطة متوسطة متاحة لارواح الطوباويين ، ليتزلوا فيها بين الارض والسماء . ايمكن كل ما يعلمه علم النور ان يشرح شكلك ، بحيث اتنعم به مثل تنعمي اذ كنت احلم بجواهر وذهب مخفية في قوسك المشعة ؟ »

على كل حال ليست الاحلام المائلة للاساطير ، بل كلمات العلي التي قالت لماذا نسجت المرة الاولى في السماء حلتك المصنوعة بالاشعة . حين سطرت بصفة عهد رب السماء على الارض الخضراء المنقذة من الطوفان ، كيف تقدم آباء العالم الموحطون ليرقبوا علامتك المقدسة ! يجئ لي ان اول ترتيب منظوم قد رن على الارض المخلصة من المحيط ، وان اول شاعر قد انشد للاحتفال بيوبيلك وذن يستطيع قريضا ابداً ان يجتبي باقية اشتك بدون اختطاف الطرب ! فيا موضوع نبوءة مرتقية الى اقدم العصور ، ابقني من الآن موضوع الشاعر ا

(١) كل صبغة من حمرة الشفق .

(٢) قد عرفنا هذه الاشارة الجرئية تريبياً حرفياً .

ما ابداع منطقتك الملقاة على الجبال والسهول والمدن ، او المنعكسة في المحيط الرهيب الى عمق الف باع ! في ذلك الافق المظلم تبدو محاسنك جديدة حديثة ، كما بدت حين لما النسر في اشعثك المرة الاولى بعد انطلاقه من سفينة نوح ، لان الله الامين لكتابه المقدس يبيد الى الآن بنا . انفراج قنطرتك ، ولا يدع المثال الذي بشر الناس بالسلام ، يشجب بسبب الشيخوخة ! »

فلما نجد بين الحلائق المادية المحضة ما يضيء البحر تمثيلاً للعلامة الالهية باتساعه الرائع ، ولقدرتها باغراقه لأكبر البواخر ، ولاستحالة حدوث ادنى تغير فيها بثبوته على ساحة واحدة ، دون القارات الخمس ، مع تقلبات الزمان الدائمة . لقد ابداع الشاعر الملقب بالورد جورج بيرون Byron الانكليزي (١٧٨٨-١٨٢٤) ، في وصف ذلك التمثيل ، ابداعاً يجعل قصيدته « الى المحيط » من اجمل منظومات اشهر الاسن :

« واصل درجة مياهاك ، ايها المحيط العميق والمشيح الزرقة ؛ الا واصلها . ان ريوات الاساطيل تهول عليك سدى ! الانسان يُعلم على البر بالحراب ، لكن سلطته تقف عند الساحل ؛ اما على سهل المياه ، فكل غرق هو فلكك ، فلا يبقى ادنى اثر لتدمير الانسان سوى تدمير ذاته ، حين يفوس في لمح البصر ، مثل قطرة مطر ، في اعماقك ، نائماً نوحاً مصحوباً بتغنم ، من دون قبر ولا دفن جرس النعي ولا نعش ، وهو مجهول !

اوزار الحرب التي تصحق اسوار مدن مشيدة على الصخر ، حاقمة على الشعوب الارتعاش ، وعلى الملوك الارتعاد في عواصمهم ، البوارج الجيارة المصنوعة بنجشب السنديان ، التي تجمل ضلوعها الفاحشة مبدعها المصنوع من التراب يلعب ذاته تلقيب الكهرياء بملوك والسيد المطلق للبيجا ، كل هذه هي أليك ، ومثل قطعة من رُضاب الثلج ، تذوب في خميرة امواجك التي تشين على السوا . تعجرف ارمادا^(١) وغنائم ترافلكار^(٢) .

(١) كلمة اسبانية معناها اسطول حربي . من المؤرخون « ارمادا المنجبل قهرها » الاسطول الجياري الذي سيره فيليب الثاني ملك اسبانية ، سنة ١٥٨٨ ، لمحاربة انكلترا ، فلاشئ الناصفة .

(٢) اسم رأس في اسبانية في جهة مضيق جبل طارق الشمالية الغربية ، وقد اتمصر في جواره الاميرال الانكليزي نلسون (Nelson) على اسطول اسبانية وفرسة المتحالفين سنة ١٨٠٥ .

شراطتك مالك قد تحورت الى كل شي . سواك . اشور واليونان ورومية
وقرطجة ، ما هي ؟ مياهاك قد افنتها اذ كانت حرة ، وبعدئذ عدة طناة ،
فسواحلها تخضع الآن للاجنبي او العبد او المتوحش . اما انت فعلى غير ذلك
الحال ؛ تأبى التحول الا عند لهو امواجك الشديدة . الزمان لا يرسم غضناً على
جيبك اللازوردي ، فتدحرج مياهاك الآن كما رأك فجر البكون ا

انت ، يا مرآة مجيدة تنعكس فيها صورة الكلي القدرة حين العواصف ،
انت الذي في كل آن ، في الهدوء او التشنج ، عند هبوب النسيم او العاصفة
او الريح الزرع ، حين جردك في القطب او وجودك في اقاليم القيط ، لا تزال
حزيناً ، خافقاً ، بلا نهاية ، بلا حدود ، فائق الجمال ، رمز الابدية ، عرش
الاله الحفي . حتى من طين قمرك تُجبل حيوانات اللجج الجبارة . كل منطقة
تطيمك ، وانت تسير قدماً ، رهيباً ، غير قابل السهر ، وحيداً ا

ولقد سُففت بك ، ايها المحيط ، وكان فرحي بلاهي الشباب ان اكون
محمولاً الى الامام على صدرك مثل نُفأخاتك . منذ الطفولة كنت ابعث بامواجك
المتقهرة بضجة بعد الاصطدام . كانت نيباً لي ، واذا هيتها الى البحر عند
برودته ، كانت هيتي مطربة ، لاني كنت مثل ولد من اولادك ، انتق بامواجك
في كل مكان ، وأضع يدي على لبدتك كما افعل الآن . »

لقد قيل بكل الصواب ان الهيام يوجد حتماً بعض المساواة بين المحب
ومحبوبه ، ولو كان بين مقاميها يون شاعر . ومن ثم قد حث الشنف بمحاسن
الطبيعة نوابغ الشعراء على اعارتها نفياً بشرية تشاظرهم افكارهم وهمومهم ،
افراحهم واحزانهم . ما اشد طرب توما مور Moore الانكليزي (١٧٢٩-١٨٥٢)
باصفائه المتواتر الى احاديث اجراس المساء :

« اجراس المساء هذه ، اجراس المساء هذه ، كم من حديث تمدثنا
موسيقاها عن الشباب والوطن وذلك الزمان اللذيذ الذي سمعت فيه آخر مرة
الحانها المتألقة ، المسكنة ا تلك الساعات السميدة قد مضت ، وكثير من القلوب
التي كانت وقتئذ جذلة ، تسكن الآن في ظلام القبر ، فلا تعود تسمع تلك
اجراس المساء ا وهكذا يكون بعد رحيلي ؛ ستعز دقة الاجراس الرخيصة ،

بينما يسير في هذه الاودية شمراء غيري، وبتغرغون بتديحك، يا اجراس المساء اللذيذة!

جورج موريس Morris الاميركي (١٨٠٢ - ١٨٦٤) يعدّ سنديانة اطلته طول اعوام شبابه ، صديقةً عزيزةً جداً ، فينهى الخطاب عن مساسها بفأسه المحطمة القاسية :

« يا حطاب ، لا تؤذ هذه الشجرة ! لا تمس غصناً واحداً منها ، فقد اظلنتني في الشباب وسأحميها الآن . يد جدي هي التي جعلتها في جوار كرخك ، فهناك دعها ، يا حطاب ؛ يجب الا تؤذيها فأناك !

اذ لم اكن سوى صبي كالان ، كنت اطلب ظلها اللطيف . هنا ايضاً كانت اخواتي يامنن بأتم الفرح الطافح ؛ هنا كانت امي تلتعني وابي يصافحني . اغفر لي هذه الدمعة البلهاء ، لكن دع هذه السنديانة القديمة !

ايتها الصديقة القديمة ، حولك متعلقة الياق قلبي ، شديدة القرب منك مثل لحائك ! فلا بد من ان يفرود هنا الطير البرّي ويواصل امالة اغصانك . ايتها الشجرة القديمة ، اثبتي على مجابية العاصفة . انا انت ، يا حطاب ، فقاذر هذا المكان ؛ ما دامت لي يد للانقاذ ، لن تؤذيها فأناك البتة ! »

هنري لكفلر الاميركي ، السابق ذكره ، قد سنى تعويم سفينة تزوجها للبحر ، فبلغ ذروة الابتكار والاجادة في وصف المروسين ييم اقترانهما السعيدة : « لقد تم كل شي . ؛ اخيراً وافي عرس الجمال والقوة ؛ اليوم تعوم السفينة . السماء قد بيضتها غيوم مجمدة ، وعلى الفُرصة تطلع الشمس الكبيرة ، متهلة ومحلاة بكل حلاها البنية ، لتشاهد ذلك المشهد . البحر الهرم ، ابن الصور العديدة ، القوي والمستقل مثل الشاب ، يسير مضطرباً ، من جبهة الى اخرى ؛ يصعد الى الرمال الذهبية ويتزل منها . قلبه احائق لا هدوء . له ؛ في كل فضائه الرحيب تبهّد لحيته البيضاء . كالتلج مع اهتزاز صدره ، بتسوج غير منقطع ؛ ينتظر عروسه بفروغ صبر . هي واقفة هناك ، ورجلاها على الرمال ، مزينة بالاعلام البيجة ، احتفالاً بيوم رواجها . راياتها البيضاء . كالتلج ترفرف ، ويتخلط بعضها ببعض ، وتسدل حولها شبه التمام ، وهي مستعدة لتكون عروس البحر الهرم الشائب . »

إرنست راوباخ Raupach الألماني (١٧٨٤-١٨٥٢) قد رثى لفرط شقاء
بنفسجة ذبلت في ريعان شبابها ، فاتقح وزعم ان الله تعالى قليل العناية بها ،
فأفحته الزهرة المتواضعة ذاكراً له كثرة النعم التي غمرها بها خالقها ، ومؤكد
له تجدد نضارتها وازدياد حسنها في الربيع القادم :

« قلتُ امام بنفسجة ، وانا واقف بجانب ساقية ؛ قلت لبنفسجة شقية
وجدتها ذابلة : » قد انقضت حياتك الجميلة ! سرعان ما ذبلت ! كيف يسوغ
للرب القاسي ان يتصر مهلة حياتك الى هذا الحد ؟ »

فقلت البنفسجة التقيية : « لا توبخن الرب ؛ لو تشكيت من نصيبي ،
» لاستحقت دينونة عنيفة . لقد ضفر حياتي القصيرة ، من القجوم الى ختامها ،
» بالأفراح فقط ؛ ماذا اعطيته عوضاً عن ذلك ؟ جعلني انبث فرحةً بجانب هذه
» الساقية الفضية ، ومنحني من اشجار ملتهمة سنف اوراق واقياً . لم يترك دودة
» صغيرة تقضني ، بل جعلني اثر جميلة هيفاء ، واعطاني بمد الايام الحارة
» شراب الندى المرطب . لي كان نعيم المساء ، لي كانت اية الصباح ؛ كانت
» الشمس تلثني في النهار ، والقمر اللطيف في الليل . فاذا انخفضت الآن
» رويداً ، فالسنة تجري مجراها ويعود ربيع ، فأنفتح مجال اشداً ! »

لقد حان ختام هذه المقالة التي سداها تعريفنا الدقيق لبعض فرائد الشعر
الغنائي في اللغات الجرمانية ، ولحمها نظم تلك الدرر اليتيمة في سلك واحد يجمع
شملها بعد شتات ، ويوطد ارتباطها بترتيبها على حسب موادها . وكذا ان زائر
متحف صور وتماثيل رائعة يناديه بنشوة الطرب السامية مصحوبةً بفهم اعتم
لاصول التصوير والنحت ، نوّمل ان الخارجين من معرض بدائع القريض الجرمانى
يؤيدون معرفةً لما يقتضيه الشعر المحض - وهو ملك الفنون الجميلة - من سمر
الافكار ونيل العواطف وابتكار الخيالات ، فضلاً عن وضوح التعبير وكال
انجامة .